متحف الاسكندرية ومكتبتها

ولمحة من تاريخها العلمي في عهد البطالسة

[كنا بالامس نراجع فصولاً في كتاب « مختصر التاريخ » الذي وضعهُ الكاتب الانكليزي المشهور المستر هربرت ج. ولز فوقع نظرنا على فصل طيّ عن تاريخ الاسكندرية العلمي في عهد البطالسة فاقتطفنا منهُ ما يلي] .

كانت مصر الشطر الذي نالهُ القائد بطليموس من مملكة الاسكندر الكبير المترامية الاطراف بعد وفاة ذلك الفاتح العظيم. ساعدها موقعها الجغرافي على بلوغ رتبة رفيعة بين امم العصر لان بعدها عن قبائل الشمال الغازية وتحطيم اسطول الفينيقيين بعد حصار صور وافتتاحها عنوة جعلها في مأمن من هجمات الاعداء فرتع اهلوها في بحبوحة من العيش والرخاء وتسنى لهم ان ينصرفوا عن الاهتمام بامور معيشتهم والدفاع عن مواطنهم الى انشاء المدارس والاندية العلمية . فاصبحت الاسكندرية المدينة التجارية محطّ رحال الفلاسفة والعلماء ومقرًّا للمفكرين قاطبة طلاب المعارف من كل البلدان المجاورة لبحر المتوسط ، فتقدمت فيها المباحث العلمية تقدماً بيّناً لان بطليموس الاول كان محبًّا للعلم يعنى بارضاء العلماء والفلاسفة ، وبما يكفل لهم امور معيشتهم ليتفرغوا للبحث والتنقيب .

بنى بطليموس في الاسكندرية المتحف[1] المشهور الذي كان في ظاهره مجتمعاً دينيًّا ولكنهُ كان في الحقيقة ناديًا لاقطاب العلم والفلسفة والدين . وكان بطليموس قد علم ان الناس لا يقبلون على نصرة عمل كبير كهذا الاّ اذا كان لهُ صبغة دينية — والدين في ذلك الزمان كان من اقوى العوامل في حياة الافراد والشعوب .

كان ذلك المتحف ناديًا للعلماء والمفكرين الذين جعلوا التنقيب العلمي غايتهم في الحياة وقد بلغت تعاليمهم الرياضية والجغرافية درجة بعيدة من الدقة والتحقيق . فبين الرجال الذين قدموا الاسكندرية لمتابعة المباحث العلمية المجردة فيها نجد اقليدس

---

(١) ترجمنا كلمة « ميوزيم » بمتحف كما هو شائع ومعناها في الاصل « هيكل للالهة » وهي من لفظتين يونانيتين الاولى موزيون ومعناها هيكل والثانية موز ومعناها آلهة . واللفظة تطلق الآن في اللغات الافرنجية على كل بناية او غرفة تحفظ فيها آثار علمية او فنية او ادبية

الرياضي الشهير صاحب القضايا الهندسية المعروفة . واراتستنز Eratosthenes العالم الجغرافي الذي تمكن من معرفة حجم الارض وقياس طول قطرها على وجه التقريب فقال بطوله يختلف ٥٠ ميلاً عن الطول المقرر لدى علماء اليوم ، وابولونيوس Apollonius صاحب الكتابات المعروفة في الاشكال المخروطية ، وهيارخوس الذي جرّب ان يصنع ازياجاً دقيقة للكواكب المعروفة آنئذٍ ليلاحظ كلّ تغير يقع في مراكزها ، وهيرو الذي صنع اول آلة بخارية وارخميدس الذي جاء الاسكندرية وتوفّر فيها على البحث العلمي ولما برحها بقي على اتصال بعلمائها ، وهروفيلس Herophilus العالم التشريحي العظيم الذي كان يشرح اجسام المجرمين المحكومين وهم احياء ليكشف حقائق جديدة عن تركيب جسم الانسان.

اما المكتبة التي بناها بطليموس الاول الى جانب بناية المتحف فكانت تمثالاً ناطقاً بهمة ذلك الملك المحب للعلم والعلماء — اذ جمع في هذا العمل الكبير بين مكتبة عمومية يؤمّها جماهير الطلاب والمفكرين للدرس والمطالعة وشركة تجارية لنسخ الكتب وبيعها. ولاتمام غرضه الاخير دعا طائفة من النساخ البارعين ليقوموا بهذا العمل ، وربط ادارة فرعيّ المكتبة برجل كبير يدعى كاليماخس Callimanchus فنالت في ايامه نجاحاً باهراً ووضع للكتب التي كانت فيها بياناً (كاتالوج) وافياً يسهل على طلاب العلم مراجعة الكتب التي يريدونها في اقصر وقت واقل عناء

عند ما نذكر لفظة « كتاب » يتبادر الى الذهن هيئة مجلد حديث ، لفليف الطبع متقنهُ ، جيد الورق صقيلهُ ، حسن التبويب والتقسيم ، يسهل فتحهُ وتقليب صفحاته يحوي في آخره فهرساً لموضوعات الفصول المختلفة وآخر لاسماء الكتب التي اعتمد عليها الكاتب بل نرى في كثير من الكتب العلمية معاجم وافية لتفسير الكلمات الغامضة والدلالة على لفظها الصحيح . ولكن يجب الاّ يبرح من الذهن ان الكتب التي كانت في مكتبة الاسكندرية لم تكن على شيء من ذلك بل كان معظمها او كلها لفائف من البردي نسخت عليها اكثر المؤلفات القيمة القديمة . وكان يضطر المطالع ان يأخذ المؤلفات التي يريد درسها لفّةً لفّةً ويبسطها ، ليطّلع على محتوياتها ولا يخفى ما في ذلك من الضرر على الكتاب او اللفّة لما يمحى منها بواسطة الطيّ والنشر وما يعلق بها من الاقذار وعرق اليدين فلا تلبث ان تتلف

ولما رأى كاليماخس صعوبة استيعاب المؤلفات الكبيرة كتاريخ هيرودتس قسمها الى فقرات صغيرة ودعى كلاً منها كتاباً او مجلداً

ويجدر بنا ونحن في هذا الصدد ان نقابل بين الاحوال التي كتب وألف فيها العلماء والفلاسفة الاقدمون ، والاحوال التي تحيط بعلماء العصر الحالي وكتبه

يجلس الكاتب العصري اليوم الى مكتبته ليكتب في الموضوع الفلاني فيجد بين يديه قاموساً دقيقاً ودائرة معارف حديثة تحوي كل ضروب العلم وانواع الفنون ، وقاموساً للاعلام وقاموساً جغرافياً واطلساً وغيرها من الكتب التي تقرب للكاتب معرفة الحقائق وتسهل عليه ضبطها . ولكن اذا تصفحنا التاريخ وجدنا ان علماء الاسكندرية وغيرها من المدن القديمة التي اشتهرت بالعلم والفلسفة لم يكن لديهم هذه الوسائل التي تمهد لهم سبيل البحث والتأليف فكان يتحتم عليهم ان يقضوا الساعات بل الايام والشهور باحثين ومنقبين عن حقائق لا تستغرق معرفتها الآن دقيقة او دقيقتين

وبعد ما ينهي الكاتب العصري مقالهُ او كتابهُ يرسلهُ الى المطبعة فتنضد حروفه وتطبع المسودة وترسل اليه فينقحها ويغير فيها ما شاء ويعيدها الى منضد الحروف فيصلح ما فيها من الخطإ وفي مدة وجيزة يستطيع ان يطبع منها مئات بل الوف النسخ اما الكاتب القديم فكان يعطي كتابهُ للنساخ بعد اكمانهِ ولا يخفى ما في النسخ من المشقة وقلة التدقيق فتنقلب العبارات حتى تدل على ما يناقض معناها الاصلي ولذلك كان سير العلم من الخاصة الى العامة بطيئاً كل البطء . فعلم كعلم التشريح مثلاً لم ينتشر ولم تعمَّ حقائقهُ الا بعد ما تمكن المستنبطون من استنباط اسلوب يمكنهم من طبع صور الاعضاء والعضلات والعظام وغيرها من اعضاء الجسم توضيحاً للمعنى على نسخ عديدة بنفقة قليلة

ليس في التاريخ ما يثبت ان علماء الاسكندرية جربوا ان يستعملوا الطباعة كما نستعملها الآن فيدهشنا ذلك لان الناس كانوا حينئذٍ متعطشين للارتواء من مناهل العلم والفلسفة ، مستعدين لشراء الكتب والمطبوعات التي تسهل عليهم قصدهم . وزد على ذلك ان مقتضيات العصر كانت تتطلب كثيراً من الاعلانات والنشرات ولكن مع كل هذه العوامل التي جعلت وجود الطباعة ضرورياً لم تستعمل الطباعة الا في اوربا بعد عصر النهضة . لكنَّ مبدأها كان معروفاً منذ فجر التاريخ ، ولدى علماء التاريخ كثيرٌ من الادلة على ان الانسان الباليولثي Paleolithic كان يطبع بعض الصور على الجلود . وليس

سك النقود القديمة الا نوعاً من الطباعة البسيطة . والسبب في اهمال الطباعة على الاساليب الحديثة حينئذٍ عائدٌ ولا ريب الى عدم الحصول على مادة كالورق تصلح للطباعة . ثم ان المصريين القدماء استعملوا البرديّ للكتابة وكتاب الاموات شاهد على ذلك، ولكن البرديّ لا يصلح لطباعة لان قطعهُ غير متساوية في الحجم والتخانة ، واما الورق على عهدنا به في هذا العصر فاخترعهُ الصينيون ولم يكن قد وصل الى الشرق الادنى حينئذٍ ، ولو وجدت المطابع لاضطرت ان تتوقف عن العمل منتظرة تحضير لفائف البرديّ او وصول بالات الورق الصيني . ولكن هذا التعليل لاهمال الطباعة حينئذٍ لا يعلل اهمال استعمالها لطباعة الصور والرسوم بحفر الاصل على قطع خشبية او حجرية اولاً

ثم كان كلٌّ من متحف الاسكندرية ومكتبتها مصدر نور علمي باهر ولكنهُ كان نوراً يحيط بهِ الواح سوداء تمنع انتشار النور الى عامة الناس ولذلك بقي العلم محصوراً في طبقة خاصة منهم . وكان يتحتم على الانسان الذي يريد ان يتعمق في الدرس والعلم ان يهجر الحياة العمومية ويقطع المسافات الشاسعة حتى يهبط مدينة مشهورة بعلمائها فيدرس عليهم ويعاشرهم ويتثقف بتعاليمهم وحكمتهم . ولكن هذه الشعلة العلمية بل هذه الثورة الفكرية البعيدة المدى لم تدم اكثر من قرن واحد لان نظام المتحف نفسهُ لم يساعد على ذلك . فقد كان المتحف مشروعاً ملكيًّا وكان العلماء يتقاضون راتباً شهريًّا من الملك بطليموس ولذلك لما توفي كلٌّ من بطليموس الاول وبطليموس الثاني ، خبت تلك الشعلة وسكنت تلك الثورة لان ملوك البطالسة الذين عقبوهما لم يكونوا من انصار العلم ومحبي الفلسفة

هجرت الحكمة الاسكندرية وتركت فيها التظاهر بالعلم والتصنع في الكلام ، وخلف الانتفاعَ بالكتب عبادتُها ، ولم يمرّ على الاسكندرية اكثر من قرن حتى نزل في متحفها ومكتبتها رجال يختلفون كل الاختلاف عن علمائها الاول . رجال متعصبون ولكن لا مذاهب لهم ، اعمالهم كالمشعوذين ولكن ليس لهم عصا السحر ولا كهوف الساحرين ، يهتمون بجزئيات الامور ولا يدركون كلياتها ، لا يثنيهم عن نسخ الكتب ثانٍ مهما صعب العمل ولا يردعهم عن طلاب الكتب النادرة رادع مهما بعد المنال ، ولكنهم بدلاً من ان يزيدوا تلك الشعلة الفكرية اتقاداً واشتعالاً ، قضوا عليها بتضييقهم وتقييدهم ، فخبت وانطفأت